من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

— ٣ —

مطابقة المرافعة لمقتضى الحال

إن أهمها بلا شك هو مطابقتها لمقتضى الحال . فللاسهاب منها مواضع وللايجاز مواضع . يجب استعمال اللفظ المجلجل مرة والسهل البسيط أخرى . يغلب المنطق هنا والعاطفة هناك حسب الظروف والأحوال

وليس يستطيع هذا إلا المتكلم المصقع المتصل بالأدب بأوثق صلة ، العالم بطبائع الناس العارف لمواقع الكلام ، المتصرف فى أنواعه المختلفة بما يريد ويشتهى

كفايات صعبة بلا شك ، ولكنها لازمة أدرك الأقدمون ضرورة توفرها فيمن اتخذ الكلام صناعة . فكان محامو اليونان أفصح أهل زمانهم وأعلمهم . وسار الرومان فى أثرهم فلم يكن لطلاب البلاغة فى عهدهم غير ساحة القضاء يقصدونها للأخذ عن أئمتها وحاملى لوائها من الترافعين المبرزين أمثال أنطونيوس وهورتنسس وشيشرون . ثم تجددت هذه الحال فى عصر النهضة فكان على طالب المحاماة بعد الفراغ من دراسة الحقوق أن يتنسك أربع سنوات يقضيها متأملاً باحثاً قبل أن يقدم على المهمة المقدسة الكبرى — مهمة الدفاع

وقد بلغ من إغراق الأسرة القضائية فى ذلك العهد فى التأدب أن أصبحت المرافعات والأحكام عبارة عن اقتباسات مكدسة من كتب اليونان والرومان تلوح بينها الألفاظ الفرنسية وتختفى

بل إنك لتقرأ فى أخبار ذلك الزمن أن باسكييه أشهر محامى القرن السادس عشر أورد فى إحدى مذكراته بيتاً لاتينيا لم يشر إلى قائله ووقعت المذكرة فى يد دى نو قاضى القضاة فلم يشأ أن يحكم فى الدعوى حتى يعرف مصدر الشعر

وبقى الاتصال وثيقاً بين الأدب والقانون خلال القرن السابع عشر والذى يليه . فأصبح من تقاليد المجمع اللغوى تخصيص أحد كراسيه لأبرع المحامين أدباً . وكان يشغل هذا الكرسى فى عصرنا الحاضر إلى عهد قريب النقيب الأشهر المرحوم هنرى روبير

وتجد مثل هذه الرابطة بين الأدب والقانون فى انجلترا ، فكثير من أشهر أدبائها شغلوا كراسى القضاء أو لبسوا رداء المحاماة

وقد بقيت لغة الأحكام والمرافعات فى مصر سقيمة تافهة حتى دخل الميدان أمثال محمد عبده وحفنى ناصف ومحمد صالح وقاسم أمين وسعد زغلول فرقوا بها إلى طبقات لم تكن تحلم بها

وهذه الصلة ما زالت إلى اليوم معقودة يوثق عراها أعلام من أدباء العصر ، فالدكتور هيكل كان محامياً ، وفكرى أباظه والدكتور مرسى محمود ولطفى جمعه محامون مشتغلون . وكان على رأس محكمة النقض والنيابة العامة أديبان لم تسعد اللغة القضائية حتى الساعة بخير من قلميهما

* * *

لغة المحاكم إذن جزء من أدب كل أمة . ليس لها عنه غنى وله فيها كل الغناء

لا غنى لها عنه لأنها من دونه ضئيلة عليلة مملة مسئمة

وله فيها غناء لأنه يجد فى ساحتها ميداناً مترامى الأطراف

ولو استنتجوا من هذين البيتين أنه ينكر المعاد لكان لاستنتاجهم وجه . على أنه إذا صح أن يكفر رجل بهذا الكلام وجب أن نحكم على علماء المسلمين عامة بالكفر ونحكم بذلك بادئ الأمر على المشتغلين بعلم الكلام والرد على فرق الملاحدة ، ذلك بأنهم يحكون لنا أقوال الكفار كما حكاها أبو الطيب فى هذين البيتين ، بل إن علماء المسلمين أولى بهذا الحكم منه لأنهم يذكرون مع ما يحكونه من الآراء شبهة أهل هذه الآراء ، وقد يصورون شبهاتهم فى صورة الأدلة ؛ يجب عند خصوم أبى الطيب أن يكون علماء المسلمين كفاراً وان لم يعتقدوا ما يحكونه من آرائه وان كان عندهم من الأدلة على بطلانها ما لا يدخل فى حساب أحد ، وفى الحق أن أعداء أبى الطيب لم يكونوا موفقين فيما رموه به ، وأن أبا الطيب نفسه لم يسعفه التوفيق فى كل ما جرى على لسانه

(له بقية)

محمد محيى الدين عبد الحميد
المدرس بكلية اللغة العربية

تلتقى فيه الحقيقة بالخيال ويسعد قلم الأديب بمواضيع لا حد لكثرتها ولا تباينها . فمنها العظيم الفخم ومنها الصغير الدقيق . فيها الباكى المفجع وفيها الفكه الضاحك . الانسانية كلها هنا ، بأفراحها وأتراحها ، بآلامها وأحلامها ، بنبلها وضعتها ، بخيرها وشرها . فالقلم الذى لا يجرى فى هذه الحلبة الواسعة خير له أن يكسر

ولكن للغة المرافعات مع ذلك خصائصها ولها مميزاتها

لغة المرافعات لغة حديث لا كتابة

إنها قبل كل شىء لغة حديث لا لغة كتابة

وإن كان للحديث على الكتابة مزايا فان له متاعبه وله صعابه

فمن مزاياه أن المحدث يلقى السامع وجهاً لوجه ؛ وفى استطاعته إذ يلقاه على هذه الصورة أن يستعين على اقناعه بلسانه وعينه ، بصوته واشارته ، بحركته وسكونه ، ببديهته ودقة ملاحظته ، بل بما فيه من قوة مغناطيسية كامنة

ولكن يقابل هذه المزايا أن المحدث مضطر بحكم طبيعة الموقف إلى الابتكار السريع والكلام المرتجل ومواصلة الحديث فى غير توقف ولا تردد

فكيف يجب أن تكون لغته ؟

إن أولى صفاتها من غير شك بساطة التعبير

بل قل إن هذا الشرط شرط ضرورة ؛ فقد يملك الكاتب أن يستعمل اللفظ المنمق ، وأن يحتال على المعانى البعيدة ، وأن يطلق العنان للخيال فيواتيه بصور شعرية رائعة . ولكن شيئاً من هذا غير مستطاع ولا ميسور لمتكلم تكتنفه صعاب الارتجال ، وتستحثه الحاجة الملحة إلى افهام سامع يرمقه بعين تتسع انتظارا قد ينقلب فى لحظة إلى تململ أو سآمة

صحيح أن الطبيعة لم تؤات جميع الناس بالبديهة الحاضرة التى تستطيع الكلام عفوا ، فهم مضطرون إلى تحبير مرافعتهم ثم إلقائها . ولكن حتى هؤلاء يجب أن يكتبوا بغير اللغة المعدة للقراءة ، إن عليهم أن يتصنعوا لغة الارتجال ؛ وليس هذا بميسور إلا أن يحتذوا حذو محام نابغة يدعى فارير ، تكلم عن طريقته فى كتابه الممتع فقال إنه يرى صامتاً مفكراً مدى أيام كلما اعتزم الدفاع فى قضية هامة ، فاذا ما كان قبل الجلسة بقليل اعتكف فى مكتبه ثم جلس للكتابة فأطلق العنان لقلمه لا يلوى على شىء مما يعنى به الكاتب من فصل أو وصل ، وبعبارة أخرى إن الرجل كان يترافع بقلمه فى القضية متمثلا أنه أمام المحكمة ، حتى إذا فرغ طوى صحفه وقام عنها وقد رسمت هذه المرافعة المكتوبة فى رأسه معالم واضحة توجه فكره إذا ما وقف للدفاع ، وتقيه شر جموح الخاطر دون أن تمنع تدفق بيانه المطابق لمقتضى الحال

العاطفة فى لغة المرافعات

وليس أجل فى لغة المرافعات بل ليس أنزم من غلبة العاطفة فيها

إن كلام المحامى ليبقى مجرد كلام لا طائل تحته حتى تغشاه عاطفة صادقة فتصبح له قوة السحر . وقديماً قالوا إن القول ينفذ إلى القلب إذا صدر من القلب . ولكن كيف السبيل إلى مثل هذا القول ؟ ليس أعصى فى موضوعنا من التعبير عما نقصد « بالعاطفة » هى لا شىء . وهى كل شىء

يقف محاميان يطلبان الرأفة لمتهم ، فيفوه أحدهما بكلام لا يعدو السمع . ويقول الآخر قولاً يهز القلوب هزاً

كلاهما يترافع بالعربية . وكلاهما يستعمل كلمة الرأفة أو الشفقة . فكيف يتفاوت أثر مرافعتهما هذا التفاوت ؟

فتش وابحث وسل علماء النفس ينبئوك بأن واحداً من الاثنين حساس يستشعر ما يقول ويتأثر به فتنتقل منه عدوى التأثر إلى السامع

والتأثر لكى يكون له هذا الأثر يجب أن يكون صادقاً . وهو لا يكون صادقاً إلا أن يصدر عن يقين واقتناع

وإن تعجب لشىء فاعجب لهذا الاقتناع يبدو لك صادقاً — وهو صادق بالفعل — فى قضايا يستحيل على العقل أن يصدق أن كلام المحامى فيها وليد الاقتناع وليس فى الأمر مع ذلك معمى

ذلك أن المحامى القادر إذا ما أخذ على عاتقه المرافعة فى قضية صعبة راح يفكر فى صعوبتها ورائده الرغبة فى التغلب عليها وتلح عليه هذه الرغبة وتلحف بقدر ما يستعصى المخرج ويبعد الحل . ثم ينتهى الأمر بتذليل المحامى للعقبة أو اعتقاده أنه ذللها . وفى

هذه الحالة الثانية تطغى الرغبة على العقل وتستعبده ، وقد يكون جباراً قوياً يندفع بقوة الايمان الصحيح

جمعنى وأستاذى الكبير مرقس فهمى قضية مخدرات كان المتهم الأول فيها رجلاً معروفاً . ولم يكن فى القضية منفذ لأبرة لا من حيث أدلتها ولا من حيث أدبياتها . فالمتهم ضبط متلبساً بالجريمة ولم يكن له عذر مقبول من أى نوع . بل بالعكس كانت الأسباب تحتشد وتتضافر لأخذه بالشدة ، فقد كان الرجل مثقفاً غنياً لا يشفع له جهل ولا مسيس حاجة . فجئت الجلسة وكلى آذان لسماع مرقس فهمى . ماذا يستطيع الأستاذ العظيم أن يقول فى هذه القضية اللعينة ؟ أى دفاع يتحسس وأى عذر يتلمس ؟ جلست أترقب وأنتظر . وأخيراً وقف مرقس للكلام . فاذا به يهاجم هذا الحصن المنيع من أكثر نواحيه منعة وأقلها توقعاً للهجوم . أجل لقد أخذ مرقس القضية عنوة من ناحيتها الأدبية ، متوسلاً بما لاحظه من أن التحقيق كان سرياً فيها وأن المحامين قد منعوا عن حضوره . وانظر اليه كيف يرقى بقضيته التاعسة من أعماق الحضيض الى سماء الرفعة ، يجعلها مثار الكلام على الضمانات التى يشترطها القانون لصحة التحقيق وقدسية مهمة المحامى . أنظر إليه كيف يبدأ هذا الدفاع المجيد وقل إن فى مصر محامين :

« نحن المحامين نعالج آلام الناس ونرافقهم فى شقائهم ، ولهذا نرتدى الثوب الأسود ونقف فى هذا المكان المنخفض . فاذا ما أعيانا التعب جلسنا على هذا الحجر الصلب فيزيدنا تعباً . فنحن حقيقة بؤساء ، وفقاء البؤساء . ولكن برغم هذه المظاهر الخداعة فان الذى فى قلبه إيمان بالحق يرتفع من هذا المركز المتواضع إلى السمو الذى لا حد له . ذلك لأن عماده كله الحق ، ولأن مأمورية المحامى تمثل حق الدفاع المقدس . والقداسة لا تحتاج لسلطة ولا تحتاج لمظهر قوة بل هى جميلة ، جميلة بنفسها مهما كانت مظاهرها . مظاهر التعس والتواضع ، ولأن المحامى مأموريته التى تسمو به إلى أقصى ما يعرف من معانى السمو هى أن يوجه ضمير القاضى وأن يحدثه فيما يصح أن يتجه إليه عدله . فحقيقة لا يوجد سمو آخر يمكن أن يتصور

قلت هذا لا تفاخراً بموقف المحامى ، لأن الذى يدرك واجبه ليس فى حاجة — بل عيب عليه — أن يفخر ، لكنى قلته ليعلم حضرة القاضى أنى أعاهد نفسى بألا أعرف لها كرامة إلا إذا تقدمت إلى ضميره بكلمة الحق ، وفى هذا السبيل فليقفنى فى الكلام حضرة وكيل النيابة فى الوقت الذى يريده . إلى أن قال :

« إن التحقيق ليس هو ما يكتب لا . لا . التحقيق هو أولاً وبالذات الضمانات ، احترام الكفالات التى قررها القانون فى حق المتهم . كيف تستجوبه ؟ من هو الشخص الذى وضع فيه الشارع ثقته فى أن يتلقى هذا المتهم المسكين وديعة فى يده ليتصرف فى شأنه ، لعله ينفعه ، لعله يخدعه ، لعله يمنيه ، لعله يخيفه أو يهدده . فحتى لا تكون قداسة القضاء مستندة إلى تلك الطرق المخجلة المعيبة قال المشرع إن المتهم فى حماية النيابة وحدها ، والمتهم أول ما تقربه النيابة تستجوبه فى ساعات ٢٤ ساعة . والمتهم إذا حبسته له ضمانة معينة . والمتهم يا سيدى القاضى لا يقابله أحد فى سجنه حتى إذا أراد المحامى أن يقابله . المحامى ممثل حق الدفاع إن رأى أن يقابله ليأخذ سر هذا المسكين . لا يقابله إلا باذن

ولكن ماذا جرى فى هذه الدعوى ؟ جرى أن المتهمين جميعاً قذف بهم يا حضرة القاضى إلى هوة من النار »

ويذكرنى تلمس مواضع الاحساس هنا بما يرويه هنرى روبير عن سلفه العظيم لاشو إذ قبل أن يضطلع بمهمة الدفاع عن القائد بازين أمام المجلس الحربى الأعلى فى قضية اتهامه بالخيانة العظمى فى حرب السبعين . وكان مركز المتهم بالغاً نهاية السوء ، والبلاد من أقصاها إلى أقصاها مرجلاً يغلى بالحقد على من سلم إلى العدو مائة ألف مقاتل بعدتهم وأسلحتهم . فمضى لاشو يترافع ثلاثة أيام ، وهو كمن يضرب فى حديد بارد حتى أسعفه الحظ وقد أخذ اليأس منه كل مأخذ بسقطة لسان من النائب العام إذ وصفه فى رده على مرافعته « بالمدافع عن المزورين وقطاع الطريق » . وهنا وثب لاشو وثبة الأسد قد وخز بسكين . وعاودته قوته الهائلة بفعل الكرامة المجروحة ، وانطلق بيانه الساحر من عقاله فأتى بما لم يسبقه إليه متكلم . واستطاع بعد دفاع مرتجل ملتهب أن ينقذ رأس موكله

(يتبع)

زكى عربى
المحامى أمام محكمة النقض والابرام